ومن ثم قرار الانتداب، وتعهد بريطانيا بموجبه العمل على انشاء وطن قومي لليهود في البلد. وبدئت الهجرة الى فلسطين، رغم ضعفها، خلال الحقبة ١٩١٥ ـ ١٩٣١، غير ان معدل الهجرة ارتفع بعد ان فرضت دول عدة سلسلة من القيود خفضت بموجبها عدد اليهود المهاجرين اليها، كالولايات المتحدة الاميركية وعدد من دول اوروبا الشرقية وكندا وجنوب افريقيا. وقد اصبح اليهود المهاجرون الى فلسطين العناصر الاساسية التي اسهمت في انشاء «الوطن القومي اليهودي».

وبناءً على اقتراح لجنة الشرق التابعة لها، منحت بريطانيا البعثة الصهيونية صلاحيات واسعة عندما قررت ارسالها الى فلسطين في ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨. فقد خوّلتها العمل باعتبارها «حلقة وصل بين السلطات البريطانية والسكان اليهود في فلسطين، والمساهمة في اعمال الاغاثة وتطوير المستوطنات اليهودية وتنظيم السكان اليهود عموماً... وجمع المعلومات وتقديم التقارير بشأن مستقبل التطور اليهودي في فلسطين» (ص ٧٩) استناداً الى وعد بلفور. وهنا بدأت فكرة تشكيل كتائب مسلحة للدفاع عن مصالح المستوطنين كان رائدها جابوتينسكي. وقد نفذت الفكرة، فعلاً، بعد استجابة بريطانيا للمشروع؛ اذ اعلنت في اواخر آب (اغسطس) ١٩١٧، موافقتها على اقامة كتيبة يهودية في الجيش البريطاني سميت «الكتيبة ٣٨ من حملة البنادق الملكيين»، بقيادة الكولونيل باترسون، وتعيين جابوتينسكي ملازماً فيها. نقلت هذه الكتيبة الى فلسطين العام ١٩١٨، مشكلة من متطوعين يهود، بينهم دافيد بن غوريون. وثمة كتيبة مماثلة هي الكتيبة ٤٠، غير ان عناصر الكتيبتين قد تقلصت بعد ان ترك قسم منها العمل فيهما وعاد الى مستوطناته، الامر الذي ادى الى اعادة تنظيم من تبقى من المتطوعين في كتيبة واحدة، سنة ١٩١٩، تحت اسم «الكتيبة اليهودية الاولى». لكن هذه سرعان ما تفككت وسُرِّح معظم جنودها. في هذه الفترة، واستجابة الى التطورات السياسية لدى القوى اليهودية الهادفة الى تثبيت اركان «الوطن القومي»، وقعت صدامات وانشقاقات بين تلك القوى في اطار المساعي المبذولة لتشكيل أطر اقتصادية وتنظيمية وقانونية للمستوطنين وللاراضي والعمال الزراعيين. هنا، يعرض المؤلف لابرز الاحزاب والتنظيمات، ووجهات نظرها بصدد مختلف المسائل المتنازع عليها، فيقدم لنا صورة تفصيلية عن واقع الحركة السياسية للصهيونية ومؤتمراتها في ارجاء متباعدة من العالم، فيقول ان لانشقاقات المعسكر العمالي اليهودي او الصهيوني خارج فلسطين تأثيرها المعاكس على العمال الصهيونيين في البلد. فقد غذّت لديهم الميل الى الاتكال على انفسهم ورص صفوفهم باعتبار انهم يخوضون معركة «تحقيق» الصهيونية فعلياً في فلسطين، وانهم لا يستطيعون، بالتالي، السماح لانفسهم بالانهماك في «ترف» الخلافات النظرية. وبحكم وضعهم ومنطلقاتهم هذه، لعب العمال الصهيونيون دوراً مهماً، اذ كانوا الجهة الوحيدة التي تولت، آنذاك، تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين. وقد تم ذلك عبر وجهات نظرهم ومنطلقاتهم العقائدية والاجتماعية عموماً، من دون ان يظهروا اهتماماً كبيراً بالقرارات الطنانة التي كانت تتخذها المؤتمرات الصهيونية المنعقدة خارج فلسطين، في حال التعارض بين تلك القرارات وبين اهدافها (ص ١١٥ ـ ١١٦)، لذا قرروا اتباع سياسة الاعتماد على النفس والعمل تبعاً لامكاناتهم وتطويرها، فراحوا يقيمون مختلف المؤسسات الاقتصادية والاستيطانية والنقابية وغيرها لتقوية مراكزهم على كافة الصعد، من ناحية، واستيعاب المهاجرين الجدد، العمال منهم خصوصاً، من ناحية اخرى. وثابر العمال على تنفيذ سياستهم هذه فأحرزوا نجاحات كبيرة مكنتهم، مع منتصف الثلاثينات، من السيطرة على معظم مرافق الكيان الصهيوني في فلسطين. ثم انطلقوا منها بعد ذلك ليسيطروا على المنظمة الصهيونية العالمية بأسرها، ووجدوا لهم نصيراً، هو د. حاييم وايزمان، اضافة الى ما كان لهذا من نفوذ بوصفه رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية والزعيم الصهيوني غير المنازع آنذاك.

كان وايزمان توصل، خلال اشرافه على النشاط الصهيوني عموماً، الى اقتناع بأن العمال هم الفئة الوحيدة القادرة على تنفيذ صهيونيته «المركبة»، فقرر مساعدتهم، فعمّقوا فكرة الهجرة الى فلسطين وخاصة من العمال والفنيين واصحاب الحرب، ساعين الى اقامة «المجتمع العمالي»